مدخل:

يعتبر الفكر الخلدوني مقياسا هاما بالنسبة لطلبة الانثروبولوجيا، نظرا لارتباطه بالإسهامات الفكرية لأحد أهم العلماء العرب والمسلمين، وهو العلامة عبد الرحمان ابن خلدون، من خلال مؤلفه الضخم كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المشهور بـ: المقدمة، الذي عكس مساهماته في التأسيس لظهور بعض العلوم على غرار علم الاجتماع الذي سماه بعلم العمران، والتاريخ من خلال اعتماده على مبادئ جديدة في التأريخ والتحقيق والتدوين، ومن خلال ايضا نقده وتصنيفه لعلوم أخرى على غرار الفلسفة (تاريخ الفلسفة) والمنطق والكيمياء وغيرها من العلوم الأخرى...

أهمية هذا المقياس تتجلى أكثر من خلال انه يمنح الطلبة فرصة التفتح على خصوصيات ومنشأ هذه العلوم وأهم المؤسسين لها أو المطورين لنظرياتها، في حين أنه يساهم بفعالية في تنمية ملكاتهم العلمية وتطوير روحهم النقدية والثقافية لمختلف العلوم والتخصصات.

المحاضرة الثانية: التعريف بالمقدمة

من خلال الاطلاع على المؤلف يلاحظ أهمية ضرورة التزام الترتيب في وضع العوامل المؤثرة، لأن الترتيب هنا هو مقصود وليس مجرد تقنية للجمع، وهو يعكس مدى أولوية العامل وحجمه.

أهم ما قامت به مقدمة ابن خلدون هو انها عالجت قضايا تبدو للقارئ السطحي موضوعاتٍ مجزأة، لكنها للباحث المتعمق موضوعاتٌ منسَّقة ومرتبة تغذِّي الروافد الثلاثة (السياسة - التاريخ - الاجتماع)، وتُخضِعها لقوانينَ يصل بها ابن خلدون إلى المستوى العضوي البيولوجي، لكنه يعود فيعطيها بُعْدَها الاجتماعي البشري، الذي يبتعد بها قليلا عن الحتمية والجبرية.

وفي إطار هذا تعالج المقدمة الأجزاء والموضوعات التالية:

1- الديباجة:

وفيها يذكر ابن خلدون أنه طالَعَ كتب المؤرخين فوجدهم: "لم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال، ولم يراعوا ولا رفضوا ترَّهات الأحاديث ولا دفعوها؛ فالتحقيق قليل، وطرْفُ التنقيح في الغالب كليل"، فوضَعَ هذا الكتاب الذي يصف منهجه فيه قائلاً: "وسلكت في ترتيبه وتبويبه واختراعه من بين المناحي مذهبًا عجيبًا، وطريقة مبتدعة وأسلوبًا، وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يَعْرِض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية ما يمتِّعك بعللِ الكوائن وأسبابها، ويعرِّفُك كيف دخل أهلُ هذه الدول من أبوابها؛ حتى تَنْزِعَ من التقليد يدَك، وتقفَ على أحوال ما قبلك من الأيام والأجيال وما بعدك."

وهذه الديباجة لا تعدو أن تكونَ (مقدمة) للمقدمة بالمعنى المعروف للمقدمات، من شرح المنهج، ومن بيان الجديد الذي يعتقد الكاتبُ أنه يضيفه، وأسباب التأليف، ومنهجه الجديد.

2- **مقدمة:** في فضل علم التاريخ، وتحقيق مذاهبه، والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام، وذكر شيء من أسبابها.

الكتاب الأول: ويتكون من: في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب.

الباب الأول: في العمران البشري على جملة، وفيه ست مقدمات:

الأولى: في أن الاجتماع الإنساني ضروري.

الثانية والثالثة والرابعة والخامسة: في قسط العمران من الأرض، وفي الأقاليم، وتأثير الهواء في ألوان البشر، وأخلاقهم، وشؤون معاشهم.

والسادسة: في الوحي والرؤيا، وفي أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة، وفي حقيقة النبوة والكهانة والعرافة.

الباب الثاني: في العمران البدوي، والأمم الوحشية والقبائل، وما يعرض في ذلك من الأحوال.

3- **الكتاب الثاني: ويتكون من:**

الباب الثالث: وهو في الدولة العامة، والملك والخلافة، والمراتب السلطانية، وفيه كلام عن نشأة الدول، وتطورها قوة ثم ضعفًا، مع بيان أنه "إذا تحكمت طبيعةُ الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدَّعة، أقبلت الدولةُ على الهرم؛ وذلك أن للدول أعمارًا طبيعية كما للأشخاص، وعمر الدولة "لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال؛ لأن الجيل الأول لم يزالوا على خُلق البداوة وخشونتها وتوحُّشها؛ من شظف العيش، والبسالة، والافتراس، والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سَوْرة العصبية محفوظةً فيهم؛ فحسُّهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون... والجيل الثاني تحوَّل حالهم بالملك والترفه من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في

المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه... وأما الجيل الثالث، فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من مَلَكة القهر، ويبلغ منهم الترف غايته، فيصيرون عيالاً على الدولة، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة.

الباب الرابع: في البلدان والأمصار وسائر العمران، وما يعرض في ذلك من الأحوال. وفيه سوابق ولواحق.

الباب الخامس: في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه مسائل.

4- الكتاب الثالث: ويتكوَّن من:

الباب السادس: في العلوم وأصنافها، والتعليم وطُرقه وسائر وجوهه، وفيه يصف العلم والتعليم بأنهما شيء طبيعي في العمران البشري، وأن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة، ويضرب لذلك مثلاً بحال "بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لما كثُر عمرانها في صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارةُ، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين، وفاتوا المتأخِّرين، ولما تناقص عمرانُها واذعرَّ سكانُها، انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفُقِد العلمُ بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام".

يمكن أجمال المقدمة في النقاط التالية:

- إن هذه المقدمة إنشاء لعلم جديد، سماه ابن خلدون: "العمران"، وأطلق عليه بعضهم تجاوزًا: "الاجتماع"، وهم كثيرون جدًّا، وبعضهم حاول ربطه بفلسفة التاريخ، فيما حاول البعض مثل الدكتور (محمد محمود ربيع) صاحب كتاب: "النظرية السياسية لابن خلدون"، وبدرجة ما (محمد عابد الجابري) وغيرهما؛ حاولوا ربطه بعلم السياسة.

- إن العلم الذي يمكن أن تكون المقدمة تعبيرًا عنه بدرجة أكبرَ من كل هذه العلوم هو علم (الحضارة)، أو فلسفة الحضارة، وإنه ذلك العلم الذي ينظم العلوم السابقة وغيرها بطريقته الخاصة، وأسلوبه المتميز، وهو العلم الذي سماه ابن خلدون: (العمران).
- جاء مؤلف ابن خلدون هذا كمؤلف كان الغرض منه الالمام بالكتب التي تناولت التاريخ والتأريخ قبله، لكن انفرد من حيث أنه راح يتحدث عن التاريخ من ناحيته الحضارية (أنه حضارة) لأمة تنمو وتزدهر في عصور وترقى لفترة الازدهار ثم بعد ذلك تذبل وتسقط في عصور من الانحلال.
- انفرد ايضا من حيث انه صاغ التاريخ (وتأريخيه للأحداث) في صياغة اجتماعية في إطار نظرية العمران، التي ابتدعها، ووصل بها إلى مرحلة الابداع الفكري.
- نظرية العمران التي ابدعها ابن خلدون كانت مقدمة لظهور علم الاجتماع حاليا.
- يتضح من فكره أنه مولع بالتحليل، والاستقصاء، وصاحب ابداع وموسوعي، حيث انه يأتي بالأدلة لتأييد ودعم وجهة نظره (الاقناع).
- لم يحدث ابن خلدون حين معالجته لفترات معيشه انقطاعا بالأزمنة والأحداث السابقة، بل كان يسعى لربط الماضي بالحاضر محاولا إبراز ذلك في الأحداث الآنية واللاحقة.
- جاءت المقدمة لتعكس لنا الفكر العقلاني الاستيعابي لابن خلدون من حيث أنه استطاع أن يكتب ويجمع بين علوم شتى : الاقتصاد، الاجتماع، التاريخ، التربية، العلوم الدينية، وغيرها من العلوم.

ختاما:

إن مؤلف ابن خلدون (في القرن الرابع عشر ميلادي) لا يعلن فقط عن ظهور الفكر التاريخي العلمي، "بل إن هذا المفكر العربي، قد وصل إلى أعلى قمم الفهم الممكن لقوانين تطور المجتمع في عصره واقترب من كشف الكثير من القوانين الهامة للتطور الاجتماعي، وبإمكاننا ان نقطع بأن ابن خلدون هو المنشئ الأول لعلم الاجتماع رغم ما يزعمه الغرب في نفي هذا، فهو الذي بحث في مواضيع العمران البشري والاجتماع الانساني بظواهره المختلفة واستنتج منها، إلى حد الحدس والتنبؤ العلمي، قواعد عامة بمثابة قوانين العمران."[1]

[1] محمود عبد المولى، ابن خلدون وعلوم المجتمع، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1980، ص 118.